ISSN 2170-0796

أزمة العقل المسلم المعاصر والمأزق الاستراتيجي الأمريكي

الأستاذ: امحمد ربحي كلية العلوم والتكنولوجيا

أثارت الإساءة إلى النبي ﷺ من خلال الفيلم الأمريكي ردود أفعال قوية من قبل الجماهير المسلمة في العالم العربي والإسلامي وصلت إلى حد الاعتداء على السفارات الأمريكية وقتل بعض رعاياها الدبلوماسيين كما حدث في ليبيا ،حينها تساءل الكثير من العلماء والمثقفين ورجال الفكر والسياسة حول مدى تأثير هذه الأفعال على العلاقات الإسلامية – الغربية و على مستقبل الإسلام في بلاد الغرب في ظل تحولات جذرية في بنية النظام السياسي العربي وإعادة صياغة الإستراتيجية الأمريكية لحل الأزمات العالمية ، ومن جانب آخر طرحت تساؤلات حول التوقيت والهدف والجهة التي صنعت هذا الفيلم الخبيث في خضم الظروف الخطيرة التي يمر بها المجتمع الدولي بصفة عامة والعالم العربي والإسلامي بصفة خاصة الذي يشهد تغيرات عميقة على مستوى الفكر والسياسة والأمن والعلاقات البينية والمواجهات العسكرية وبناء الدولة الحديثة. فهل إخراج الفيلم السيئ الذكر يعبر عن التنفيس من الأزمة الخانقة أم هو تخريب مسبق للعلاقات المستقبلية بين الأنظمة العربية الصاعدة و الولايات المتحدة الأمريكية ؟

فالولايات المتحدة الأمريكية تدرس صياغة إستراتيجية جديدة في علاقاتها الدولية تنحصر في مستقبل قواعدها العسكرية في العراق وأفغانستان والخليج العربي بعد فشلها في إرساء دول ديمقراطية تماشيا مع سياساتها في المنطقة وتدهور الوضع السياسي و الأمني في العراق وأفغانستان، وتعاظم دور القاعدة وأخواتها في اليمن والصومال و منطقة الساحل الإفريقي ، في الوقت الذي يتصاعد فيه الدور التاريخي للشعوب العربية في منطقة الشرق الأوسط والمغرب العربي لبناء دول حديثة بمرجعيات جديدة قادرة على مواجهة الكيان الإسرائيلي الذي يعتبر العمق الاستراتيجي في السياسية الخارجية الأمريكية بعد فشل الواقعية السياسية التي انتهجتها أنظمة محور الاعتدال كما هو معروف في الأدبيات الأمريكية والتي أكدت انهيار عملية السلام ، ومن الناحية الداخلية يأتي الفيلم مسايرا للمعركة الانتخابية بين الجمهوريين والديمقراطيين حول رسم علاقة جديدة مع وضع الإسلاميين في الحكم في كل من تونس ومصر وليبيا واليمن والأردن حرصا على مصالحها الإستراتيجية والحيوية ، من جهة أخرى فان الأزمة المالية التي تعصف بالدول الأوروبية وأمريكا تضع شعوبها أمام منعطفات كبيرة منها مستقبل الإيديولوجية الليبرالية و البحث عن الخلاص الروحي أمام طغيان المادة وحضارة الاقتصاد، وما قصة الغربيين الذين يدخلون في الإسلام إلا دليلا على الأزمة الأخلاقية التي تعيشها المجتمعات الإفرنجية. عند تحليلنا للمواقف الرافضة العنيفة في منطقتنا للفيلم المسيء ، نكون ملزمين لطرح السؤال التالي : على أية أرضية فقهية أو سياسية استندت إليها في الاعتداء على الرعايا الأمريكيين ؟

هناك حقيقة أولية بسيطة لا تنسى وعند نسيانها ينتج عنها تحليل عقيم ألا وهي أن العقل المسلم مسكون منذ زمن طويل بالصورة السيئة عن أمريكا بسبب دور الهيمنة والضغط والاحتلال والظلم على شعوب المنطقة ودولها خاصة الشعب الفلسطيني واحتلالها للعراق وأفغانستان وبالتالي عبر الموقف الرافض عن حالة اللاشعور المختزن في الذاكرة الجماعية كما يصطلح عليها المؤرخون، ومن هنا تصبح المواقف العنيفة شبيهة بالطاقة الكامنة التي تتصرف بشكل مخيف عند تفريغها في طاقة حركية كما معلوم في علم الميكانيكا الكلاسيكية ،هذه المواقف تستدعي أمريكا إلى صياغة سياسة جديدة في العالم العربي والإسلامي خالية من الظلم والاحتلال والقمع ومساندة الاستبداد والدعم غير المبرر لسياسة التهويد والتشريد في فلسطين من قبل الكيان الصهيوني ،وإذا كانت أمريكا تصف الفيلم ضمن دائرة حرية التعبير والديمقراطية فان حرية التعبير المزعومة لا تفسر على أساس القوانين وحدها بل ينبغي فهم سلوك الآخرين انطلاقا من معتقداتهم وأفكارهم ومقدساتهم وقيمهم ، وما دور مراكز الدراسات والأبحاث في صناعة القرار السياسي الأمريكي إذا لم تقدم رؤى ناضجة لصناعة السلم العالمي ، وبناءا على ذلك فالمجتمعات الغربية ينبغي أن تحدد علاقاتها مع العالم الإسلامي في ضوء القيم والعقائد والمصالح المشتركة واحترام الحضارات وليس في نطاق الهيمنة والتبعية كما يريد رجال السياسة وجماعات الضغط التابعة لإسرائيل.

ISSN 2170-0796

إن الفيلم المسيء للرسول ﷺ لا يدخل في دائرة الإبداع السينمائي وإنما هو إنتاج سياسي ربما يهدف إلى خلط الأوراق أمام الأنظمة العربية الجديدة أو لترتيب أجندة سياسية للسياسة الخارجية الأمريكية، ولا يمكن للصناع القرار في البيت الأبيض أن يكونوا في غفلة من أمرهم حول تأثير هذا الفيلم في نفسية المسلمين، وقد يكون بمثابة جس نبض مواقف القيادات العربية الجديدة التي طالما رددت مرارا وتكرارا ارتباطها بالقضايا الأساسية للأمة والدفاع عنها خاصة القضية الفلسطينية . لكن الوجه الآخر للمشكلة أن العقل المسلم المعاصر يعاني من أزمة فهم ورؤية إزاء مشكلاته الراهنة إذ لازال مشدودا بمفهوم أن السيف أصدق إنباءا من الكتب دون أن يدرك أن الرأي قبل شجاعة الشجعان ، فتغيير مواقف الغرب وسياساته في حاجة إلى جهد ضخم على مستوى الفكر والإعلام والأخلاق وصناعة القوة التي تحمي الحق وتدافع عنه ،ألم تكن الجماعة المسلمة الأولى تتلقى الأذى المعنوي والمادي وعلى رأسهم الرسول العظم وهي تجاهر بالحق دون خوف أو تردد مع الامتناع عن المواجهة والصدام ، إدراكا لاختلال موازين القوى وإظهارا لجمال الإسلام ورحمته حتى تعطي للمدعوين من قريش فترة كافية للتأمل والفهم والحوار طمعا في دخول الإسلام عن حب وطواعية .

أليس من آداب الجهاد في الإسلام عدم الاعتداء على الطفل والراهب في صومعته والنساء والأبرياء والعزل والممتلكات الخاصة والعامة ؟

كيف يصل الإسلام إلى أولائك الأهالي الأبرياء وهم يرون أبناءهم يقتلون من غير سبب ؟

ألم يدرك الطيبون في ديارنا أن من الموازين الثابتة في الفقه الإسلامي النهي عن سب الأصنام درءا لسب جلال الله تعالى وقدره من قبل المشركين مصداقا لقوله تعالى :(و لا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) ، ألا يحتاج العقل المسلم اليوم إلى دراسة عميقة في السيرة النبوية لتحديد الفواصل بين المبادئ والمقاصد والمواقف ؟

لقد وصف صاحب الرسالة بكل الأوصاف المسيئة لمكانته ورسالته من السحر والجنون والصرع والهذيان وتلقيه العلم من أعجمي مع الأذى المادي والاضطهاد الاجتماعي والتضييق السياسي و التضليل الإعلامي وقد لقبوه من قبل بالصادق الأمين، دون أن يثنيه ذلك عن أداء رسالته وفق منهج سليم حتى عجز كبراء دار الندوة أمام أساليبه الحكيمة ، وقد يقول القارئ الم تكن أمريكا للعالم الإسلامي و لازالت أشد عداوة وأشد تنكيلا بالمسلمين في الأرض ؟ نقول هو كذلك ولكن على رسلك يا صاح ، فإن المعركة بين الحق والباطل لا تدار بالوسائل المتماثلة فقط بل تحكمها الموازين الشرعية والأخلاقية والعلمية والفقه السليم للكتاب والسنة ، وقد أثبتت السيرة والتاريخ أن التفوق الأخلاقي كان الأقوى في حسم كثير من الجبهات والمعارك ، وما صلح الحديبية و فتح مكة إلا منارات هادية لصناع التاريخ والحضارات ، وقد يرد أحد الغيورين : هذه دلائل ليست في محلها إذ أن إظهار العزة والقوة وإرغام العدو ونصرة الرسول ﷺ مظاهر أساسية في تاريخ الإسلام ،وما غزوة بدر وتبوك والقضاء على خيبر وبني قريظة وإبعاد المشركين عن المسجد الحرام إلا شواهد تقررها سورة التوبة والأنفال وآل عمران ، ونقول هو كذلك يا حامل الهم ، إنما الفرق بيننا وبينك هي الموازين التي تحكم طبيعة اللين والشدة وتصنيف الأعداء وطبيعة الظروف و أشكال المدعوين ، وقد كان في صف المسلمين ابن سلول وسبعين من أتباعه المنافقين لم يتعرضوا للقهر والعنف وهم أقبح الخلق في الكفر والنفاق.

منذ سنوات قدم المفكر الراحل عبد الحليم أحمد أبو شقة تحليلا لأزمة العقل المسلم المعاصر تتلخص في غياب أخلاق الفكر التي تعني أن للعقل أخلاقا كما للنفس أخلاق من بينها: حب الحقيقة وتحري الحق هما الأساس الأول لبناء الفكر.-المنهجية العلمية تمنح الثقة بالنفس وإدراك قوانين الكون والحياة- إدراك الفروق بين النص والتاريخ والواقع.-إدراك الفروق بين أخلاق القوة وأخلاق الخير مقابل أخلاق الضعف وأخلاق الشر.

إن الدفاع عن الرسول ﷺ من أساسيات العقيدة والدين، غير أن المدافعين عن الإسلام لا ينقصهم الحماس والإخلاص ولكن تنقصهم الخبرة والتجربة والفقه السليم للكتاب والسنة وهذه قضية تحتاج إلى دراسة التاريخ ومعرفة الحاضر ورؤية المستقبل في ضوء الثوابت و المتغيرات ،تلك هي رؤيتنا للمشكلة التي أثارت جدلا واسعا في الإعلام العربي والإسلامي والغربي ،والتي تستدعي تنبؤات متقدمة للسياسة الغربية أمام أي تغيير في واقعنا المعاصر، وما أنا بقارئ الفنجان .